ابنُ يعيشٍ النحويّ؛ أعماله وآراؤه ومنهجه قــراءةٌ وصفيــةٌ تحليليــةٌ استقرائية.

الأستــاذ: عبد الرّحيـم البــار
جامعــة محمّـد خيضــر-بسكـرة/الجزائــر.

-ملخّص:

ابْنُ يَعِيشُ النّحْوِيُّ؛ عَالِمٌ مِنْ عُلَمَاءِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ الَذِيْنَ ولِعُوا بِحُبِّ النَّحْوِ وَدِرَاسَـتِهِ، وَالتَّوَغُّلِ فِي أَقْسَامِهِ أَصْلًا وَفَرْعًا، بَحْثًا وَاسْتِقْصَاءً وَاسْتِدْرَاكًا. اهْتَمَّ بِأَعْمَالِ سَلَفِهِ مِنْ أَهْلِ اللُّغَةِ، فَبَحَثَ فِي آرَائِهِمْ وَاطَّلَعَ بِكُلِّ جُهْدٍ عَلَى أَفْكَارِهِمْ وَتَوَجُّهَاتِهِمْ؛ وَدَلِيْلُ ذَلِكَ تَحْرِيْجُهُ وَتَرْجَمَتُهُ النَّحْوِيَّةُ لِكِتَابِ الْمُفَصَّلِ لِلزَّمَخْشَرِيّ (ت 538هـــ)، وَالْذِي اعْتُبِرَ قِمَّةَ أَعْمَالِ ابْنِ يَعِيْش فِيْ النَّحْوِ؛ لِمَا قَدَّمَهُ مِنْ قِرَاءَاتٍ وَتَعْلِيْلَاتٍ؛ لِيَلِيهُ عَمَلُهُ الثَّانِيْ شَـرْحُ كِتَابِ التَّصْـرِيْفِ الْمَلُوْكِيِّ لابْنِ جِنِّيّ (ت 392هـــ) وَقَدْ اتَّضَحَ مَنْهَجُهُ جَلِيًّا فِيْ شَرْحِهِ لِلْمُفَصَّلِ وَالتَّصْرِيْفِ الْمَلُوْكِيّ وَفِيْ هَذَا الْمَقَالِ أُقَدِّمُ وَصْفَةً تَحْلِيْلِيَّةً تَشْمُلُ نَشْأَتَهُ، وَأَعْمَالَهُ وَآرَاءَهُ وَمَنْهَجَهُ فِيْ دِرَاسَةِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ.

-الكلمات المفتاحيّة: ابن يعيش-حياته-أعماله-منهجه.

-abstract:

abn yaeish a world of linguists; as interested in the work of his predecessor from the people of the language, examining the views and evidence for that is discharged and translate it grammatical book almfssl 'Zmkhcri (538 AH), and it turns out his method of language within his explanation of the almfssl, night work the second book to alttsryf almulawki of aibn junni (392 AH), and will come in this article to describe his life and presentation of his work and the statement of his approach in his study of the language.

-Keywords: abn yaeish-upbringing and his life-his achievements -method.

(1)-حياته ونشأته:

هو أبو البقاء يعيش بن أبي السّرايا بن محمّد بن علي بن الفضل بن عبد الكريم بن محمّد بن يحي بن حيّان القاضي بن بشر بن حيّان الأسدي، الموصلي الأصل، والحلبي المولد والمنشأ، ملقّب بموفّق الدّين النّحوي ويعرف بابن الصّائغ، ولد عام: 553 هـ، وتوفي: 643 هـ. يعدّ من أهمّ نحاة القرن السّابع الهجري، واشتهر بكتابه النّحوي الضخم (شرح المفصل للزّمخشري)[1]، وبشرحه لكتاب بن الجنّي "(التّصريف الملوكي)"[2]، وأخذ علم النّحو عن أبي السّخاء فتيان الحلبي، وأبي العباس المغربي النّيروزي، وحفظ الحديث على يد الفضل عبد اللّه بن أحمد الخطيب الطّوسيّ بمدينة الموصل وعلي بن عبد اللّه بن عمر بن سويدة التّكريتي، وأخذ من علماء حلب علم الحديث أيضا على غرار أبي الفرج يحيى بن محمود الثّقفي والقاضي أبي الحسن أحمد بن محمّد بن الطّرطوسي، وخالد بن محمّد بن نصر بن صغير القيسراني، ثمّ بدمشق على يد تاج الدّين الكندي، ونجد في كتاب شرح المفصّل تعريفا كاملا ومفصّلا لابن يعيش حياته ونشأته قدّمه محقّق الكتاب إميل بديع يعقوب، حيث يقول فيه معرّفا له: "هو أبو البقاء يعيش بن علي بن يعيش بن أبي السّرايا بن محمّد الموصلي الأصل، الحلبيّ المولد والمنشأ، الملقّب موفّق الدّين النّحوي والمعروف بـ(ابن الصّائغ)، نحويّ لغويّ.

ولد ابن يعيش في الثّالث من رمضان عام 553ه (28 سبتمبر، سنة 1158م) رحل من حلب في صدر عمره قاصدا بغداد ليحضر مجلس أبي البركات عبد الرّحمن بن محمّد المعروف بابن الأنباري، ومجالس غيره من علماء بغداد آنذاك. فلما وصل إلى الموصل بلغه خبر وفاته، فأقام بالموصل مدّة مديدة يدرس الحديث، ثمّ عاد إلى حلب، ووقف حياته على التّدريس، فانتفع به خلق كثير من أهل حلب وغيرها حتى إنّ الرؤساء الذين كانوا بحلب ذلك الزّمان كانوا تلامذته. توفي ابن يعيش في حلب في الخامس والعشرين من جمادى الأولى سنة 643ه، (18 أكتوبر 1245م)، ودفن فيها في المقام المنسوب إلى إبراهيم الخليل عليه- وعلى نبيّنا الصّلاة والسّلام- ...قرأ ابن يعيش النّحو على أبي السّخاء فتيان الحلبي، وأبي العباس المغربيّ النّيروزي، وعلى أبي محمّد عبد اللّه بن عمر بن سويدة التكريتي، وبحلب على أبي الفرج يحي بن محمود الثّقفي والقاضي أبي الحسن أحمد بن محمّد بن نصر بن صغير القيسراني وبدمشق على تاج الدّين الكنديّ"[3].

وقد قدّم الذّهبيّ صورة كبيرة عن حياته ونشأته وجاء فيها: "يعيش بن علي بن يعيش بن أبي السّرايا محمّد بن علي بن المفضل بن عبد الكريم بن محمّد بن يحيى بن حيان بن القاضي بشر بن حيان، العلامة موفق الدّين أبو البقاء الأسدي الموصلي ثمّ الحلبي النّحوي، ويعرف قديما بابن الصائغ. مولده بحلب في سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة. وسمع من القاضي أبي سعد بن أبي عصرون، وأبي الحسن أحمد بن محمّد بن الطرطوسي، ويحيى

الثقفي. وسمع بالموصل من خطيبها أبي الفضل الطوسي 'مشيخته'، وغير ذلك. وأخذ النّحو عن أبي السّخاء الحلبي، وأبي العباس المغربي، وجالس الكندي بدمشق، وبرع في النّحو وصنف التّصانيف، وبعد صيته، وتخرج به أئمة. روى عنه الصّاحب ابن العديم وابنه مجد الدّين، وابن هامل، وأبو العباس بن الظاهري، وعبد الملك بن العنيقة، وأبو بكر أحمد بن محمّد الدّمشقي، وإسحاق النّحاس وأخوه بهاء الدّين، وسنقر القضائي وآخرون. وكان طويل الرّوح حسن التّفهم طويل الباع في النّقل، ثقة علامة كيس طيب المزاح، حلو النّادرة، مع وقار ورزانة صنف شرحا 'للتصريف' لابن جني وشرحا 'للمفصل' وغير ذلك. عاش تسعين سنة. وتوفّي في الخامس والعشرين من جمادى الأولى سنة ثلاث وأربعين وستمائة بحلب. وفيها توفي...القاضي الأشرف أحمد بن القاضي الفاضل عن سبعين سنة، والمحدّث صفيّ الدّين أحمد بن عبد الخالق بن أبي هشام القرشي عن ثمانين سنة والعلامة كمال الدّين أحمد بن كشاسب الدّزماري الشّافعي، والعلامة تقي الدّين أحمد بن العز محمّد بن الحافظ الحنبلي ومحدث وقته أبو العباس أحمد بن محمّود بن الجوهري الدمشقي. وإسحاق بن أبي القاسم بن صصرى الثّغلبي، ومقدّم الجيوش معين الدّين حسن بن الشّيخ بن حمويه، وخطيب عقربا السّديد سالم بن عبد الرّزاق، وشعبان بن إبراهيم الدّاراني والأمير سيف الدّين علي بن قليج، ودفن بالقليجية، وأبو بكر عبد اللّه بن عمر بن النخال، وخطيب الصالحية الشرف عبد اللّه بن أبي عمر، ومفيد بغداد أبو منصور بن الوليد كهلا وحافظ بغداد محب الدّين أبو عبد اللّه بن النّجار، والمفتي أبو سليمان عبد الرّحمن بن الحافظ ومحدّث الجزيرة السّراج عبد الرّحمن بن شحانة. ومحدّث الإسكندرية أسعد الدّين عبد الرّحمن بن مقرب الكندي، والعلامة الوجيه عبد الرّحمن بن محمّد القوصي الحنفي المفتي عن ثمان وثمانين سنة، والأديب العلامة أمين الدّين عبد المحسن بن حمود التنوخي، والعدل عتيق بن أبي الفضل السلماني وله تسعون سنة، والإمام تقي الدّين أبو عمر وبن الصلاح، المعمر أبو الحسن بن المقير وقاضي كفر بطنا علي بن محاسن بن عوانة النّميري والعلامة علم الدّين السّخاوي...وابن خطيب عقربا يحيى بن عبد الرزاق، والشّهاب يعقوب بن محمّد بن المجاور الوزير ويوسف بن يونس المقرئ البغدادي سبط ابن مداح، وخلق سواهم"[4].

ونجيء إلى أقوال العلماء حول شخصه وأخلاقه: قال عنه الوزير جمال الدّين أبو الحسن علي بن يوسف القفطيّ (ت176ه،1248م)، "لو أنصفته ما أجريته في حلبة النّحاة، ولو أنّ النّحو قنطرة الآداب، لنزّهته عن مشاركة من قصده ونحاه، فإنّني إن وصفته بالنّحو؛ فهو أديب، أو بالبلاغة فهو خطيب...أو بالمعاني؛ فهو مكنون درّها"(5).

فابن يعيش فيما وصف طيّب الخلق مرح النّفس، يقابل تلاميذه بروح الصبر ومنتقديه بسعة الصّدر، وهذا ما أورده ابن خلّكان في كتابه 'وفيات الأعيان'، حيث يقول في وصفه: "وكان حسَن التّفهيم لطيف الكلام طويل الرّوح على المبتدئ والمنتهي وكان خفيف الرّوح ظريف الشّمائل كثير 'المجون'[6]، مع سكينة ووقار، ولقد حضرت يوماً حلقته، وبعض الفقهاء يقرأ عليه 'اللّمَع' لابن جني، فقرأ بيت ذي الرّمة في باب النّداء: ((أيا ظبية الوعْسَاء بين جلاجل...وبين النقا آأنت أم أمّ سالم))، فقال له الشيخ: إنّه ذا الشّاعر لشدّة ولهه في المحّبة وعظم وجده بهذه المحبوبة 'أم سالم' وكثرة مشابهتها للغزال كما جرت عادة الشّعراء في تشبيههم النّساء الصِّبَاحُ الوُجُوهِ بالغزلان والمُهَا، اشتبه عليه الحال فلم يدر هل هي امرأة أم

ظبية فقال: 'أأنت أم أمّ سالم'؛ وأطال الشّيخ موفق الدّين القول في ذلك وبسطه بأحسن عبارة بحيث يفهمه البليد البعيد الذّهن وذلك الفقيه منصت مقبل على كلامه بكلّيته، حتى يتوّهم من يراه على تلك الصّورة أنّه قد تعقّل جميع ما قاله فلما فرغ الشّيخ من شرحه قال له الفقيه: يا مولانا أيش في المرأة الحسناء يشبه الظبية؟. فقال له الشّيخ قولا منبسطا: تُشبِهُهَا في ذنبها وقرونها، فضحك الحاضرون، وخجل الفقيه وما عدت رأيته حضر مجلسه"[7]. وجاء في جميل وصفه ما قاله السيوطي في كتابه 'بغية الوعاة': "كان من كبار أئمّة العربيّة، ماهرا في النّحو والتّصنيف قدم دمشق، وجالس الكنديّ وتصدّر بحلب للإقراء زمانا، وطال عمره وشاع ذكره، وغالب فضلاء حلب تلامذته"[8]. وهكذا كانت مسيرة نشأته ومميّزات حياته.

(2)-إنجازاته ومؤلّفاته:

ابن يعيش عالم من علماء العربيّة برزت في نشاطه المعرفيّ والفكريّ قوّة معرفته ونباهته والتي وظّفها ضمن أعماله في خدمة لغة القرآن الكريم وعلومها، وقد اعتبر شرحاه للمفصّل للزّمخشري والتّصريف الملوكي لابن الجنّي قمّة أعماله وذروتها فقد قدّم فيهما كلّ تفسير بما يتناسب ونظام العربيّة، فالأوّل تعلق بالنّحو والثّاني خصّ به الصرف. ولم تقتصر أعماله على شرح هاذين الكتابيين فقط؛ بل مضى بكلّ جهد نحو ممارسات أخرى في عالم اللّغة رغم قلّتها، وهذا ما ذكره محقّق كتاب شرح المفصّل إميل يعقوب بديع وجاء في نصّ قوله: "يبدو أنّ ابن يعيش لم يكن غزير الإنتاج، إذ لم تذكر لنا مصادر ترجمته سوى المؤلّفات التاليّة: 'شرح المفصّل'، 'شرح التّصريف الملوكي'، 'أجوبة على أسئلة نحويّة لأبي نصر الدمشقي'، 'تفسير المنتهى من إعراب القرآن'، 'كتاب في القراءات"[9]. ويرى آخرون أنّ ابن يعيش لم يشتهر سوى بشرحيه البارزين 'أمّا باقي الأعمال الأخرى؛ فهي منسوبة له وغير واضحة ولا أثر لها سوى الأخبار التي تناقلتها"[10]

يقول الأستاذ عبد اللّطيف محمّد الخطيب: "يتفق المؤرّخون لحياته كابن خلّكان والسيوطي وغيرهما على أنّ للرجل كتابيين اثنين: الأوّل: شرح المفصّل والثّاني في الصرف خاصة. قال بن خلّكان: (وشرح الشّيخ موفّق الدّين كتاب المفصّل لأبي القاسم الزّمخشري شرحا مستوفيا، وليس في جملة الشروح مثله، وشرح تصريف الملوكي لابن الجّني شرحا جيدا). وقال السّيوطي: (وصنّف شرح المفصّل، وشرح تصريف ابن جنّي). وهذا يقول القفطي: (فأمّا تصانيفه في العربيّة وفنونها فقد سارت سير الرّكبان، وتناقلها الأجلّاء المتأصّلون في هذا الشّأن فمنها كتاب (شرح التصريف الملوكي لابن جنّي، ولو رآه لجنّ طربا ويحقّق مصنّفه لهذه الصّنعة أمّا وأبًا، وشرح كتاب المفصّل للزّمخشري)" [11]

نلحظ هنا أنّ جميع العلماء ذكروا لابن يعيش عملين فقط: شرحه المفصّل للزمخشري وشرحه للتّصريف الملوكي لابن الجنّي، أمّا ما ينسب إليه من الأعمال الأخرى؛ فهو غير ثابت من حيث المرجع وغير شائع في كتب المؤرّخين، وهنا يضيف الأستاذ عبد اللّطيف محمّد الخطيب: "تنفرد بعض المصادر بذكر كتاب آخر له، وحاشية على كتابِ لابن جنّي وأمّا الكتاب؛ فقد ذكره 'بروكلمان'[12] باسم ((المنتهى في بيان إعراب القرآن)) وجاء في معجم المؤلّفين أنّه كتاب في القراءات، ولا أعرف المصدر الذي اعتمد عليه بروكلمان ولكنّني أعتقد أنّ ما جاء في معجم المؤلفين إنّما اعتمد صاحبه على ما ذكره بروكلمان فجعل الكتاب في

القراءات. وأمّا الحاشية التي جاء ذكرها؛ فهي على شرح ابن جنّي على تصريف المازني المسّمى ((المنصف))، وذكر مثل ذلك صاحب كشف الظّنون فقال: (وله حاشية على كتاب المنصف لابن الجنّي)، ولم أقع فيما رجعت على زيادة تذكر عمّا أثبته هنا مع أنّ الرّجل كان يعيش في عصر يتنافس فيه النّاس في التّأليف، ولعلّ الذي شغله عن ذلك الحلقات الكثيرة التي كان يتصدرها للإقراء فيها، فهي لم تترك له وقتا كافيا للتفرّغ لذلك ولو أنّ الذين كانوا يحضرون حلقته كتبوا عنه كلّ ما ألقاه عليهم لجاءنا عنه بحوث كثيرة جيدة في بابها"[13].

وحال كتب ابن يعيش كحال كتب الجّرجاني بين الإخبار والتنسيب؛ دون توضيح أو إثبات واختلاف المؤرّخين في تحديد أثار أعماله إلّا ما اتفقوا عنه حول الشّرحين ونقدّم هنا قول عبد الإله نبهان؛ يبيّن انحصار أعمال ابن يعيش في كتابيه السابقين. حيث يقول: "اقتصر ابن يعيش على تأليف كتابين فقط طوال حياته المديدة هما: شرح المفصّل وشرح التصريف الملوكي"[14]، ويستثنى من ذلك ما انفرد به بروكلمان: "ونسب إليه بروكلمان كتاب 'تفسير المنتهي من بيان إعراب القرآن' وذكر أنّه بالمدينة"[15]، إلّا أنّ قوله في هذا الشأن رفض عند كثير من العلماء؛ ورأوا أنّه غير صحيح ولا دليل له وهو في حكم الظّن لا اليقين؛ ونوضّح هذا في هذه المقولة: "لم يذكر أحد ممّن ترجموا لابن يعيش أنّ له كتابا في إعراب القرآن، ولو كان لما فاتهم ذلك."[16]

وذهب بعض الباحثين إلى وضع استفهام حول سبب ندرة تأليفه؛ خاصة أنّه عاصر فترة ازدهار البحث العربي في العصر الإسلاميّ، وفي وقت نشط فيه التأليف وبرز فيه العلماء، فهناك من رأى أن تكون له مؤلّفات وأعمال أخرى على غرار الشّرحين لم تصل إلينا لأسباب مجهولة: "يرى كثير من الباحثين أنّ ابن يعيش قد اقتصر على تأليف كتابين فقط في حياته المَدِيْدَةِ، هما شرح المفصل، وشرح التصريف الملوكي لكنّنا نستشفُّ ممّا ورد من أخباره في الكتب أنَّ ابن يعيش كان عالماً نحريراً ، فلابد أنّه أودع علمه كتباً من تأليفه، كما أنّ العصر الذي وجِد فيه كان عصر ازدهار التأليف، لاسيما أنّه كان معاصرًا لعلماء من طبقته أُثر عنهم غير قليل من المؤلفات النّحوية، فقد كان معاصرًا لابن الحاجب (ت646هـ) صاحب الكافية في النّحو والشّافية في الصرف، كما أنّه كان معاصرًا للزّنجاني (ت655هـ) صاحب الهادي وشرحه، وعاصر ابن الأنباري (ت577هـ) وغيرهم من الجهابذة في هذا العلم، فقد كان ثمّة ما يشجّعُه على الكتابة والتّأليف، ومن الممكن أن يكون قد ألّف الكتبَ والشّروحَ، فلم يصلنا منها الكثير، كما هو حال كثير من كتب تراثنا العربي وممّا يدلّنا على ذلك ما جاء في أحد ترجماته من أنّه "صنف شرحًا للتصريف لابن جني وشرحًا للمفصل، وغير ذلك"[17].

هكذا هي أعمال ابن يعيش -رحمه اللّه- رغم قلّتها واختلاف العلماء حولها، فما وصلنا منها كان أشدّ أثرا على الدّرس اللّغوي العربي القديم والحديث، وخاصة في شقّه النّحويّ، وأضحى شرحاه مرجعين مهّمين في علمي النّحو والصرف وباتا زادا علميّا يعتدّ به في إثراء الدّرس اللّغوي الحديث.

(3)-منهجه وآراؤه، وتوجّهه وأفكاره:

لا بد أنّ لابن يعيش منطلقات وأسسٌ ومبادئ تمثّل توجهه المعرفي والفكريّ في مجال البحث اللّغوي فهو نبيه فقيه، لا يستند إلي أباطيل، ولا يؤمن إلا بما يقبله العقل ولا يعارض النّقل كان حريصا على خدمة لغة 'القرآن الكريم' بأرقى الأساليب وأشدها أثرا في

بسط المعارف وتحقيق الإفادة وهذا ما لا ينكره قارئ لكتابه 'شرح المفصّل' فهو موسوعة نحويّة زمخشريّة، بسطها ابن يعيش بروائع تحليليّة استثنائيّة؛ كان الهدف منها فكّ الغموض وإرساء الصّحيح وترجيح الصّواب، بل إثباته بالحجّة والدّليل. ونكون في هذا الموضع قارئين لأفكاره وآرائه وأطروحاته، وهي كالآتي:

أ-وزاعه الدّيني، ومنطلقه العقائدي:

ابن يعيش –رحمة اللّه عليه- شخصيّة ملتزمة محافظة، تقرّ ذلك ملامح أفكاره في كتبه وأنظاره؛ كونه نشأ في بيئة إسلاميّة ليست ببعيدة عن عصور الخلافة الإسلاميّة، بل إنّه عاصر علماء الدّين الإسلاميّ ولازم مجالسهم، وذكر ذلك الذّهبي في كتابه، فقد "سمع بالموصل من خطيبها أبي الفضل الطوسي...وكان طويل الرّوح، حسن التّفهم، طويل الباع في النّقل، ثقة علّامة كيساً طيب المزاح حلو النّادرة، مع وقار ورزانة"[18]، وكانت له حلقات لتعليم القرآن الكريم وعاصر علماء دينٍ عظاما برزوا في علوم الحديث، والفقه والقراءات منهم: "القاضي الأشرف أحمد بن القاضي الفاضل عن سبعين سنة، والمحدّث صفيّ الدّين أحمد بن عبد الخالق بن أبي هشام القرشي عن ثمانين سنة، والعلامة كمال الدّين أحمد بن كشاسب الدّزماري الشّافعي، والعلامة تقي الدّين أحمد بن العز محمّد بن الحافظ الحنبلي، ومحدث وقته أبو العباس أحمد بن محمّود بن الجوهري الدمشقي. وإسحاق بن أبي القاسم بن صصرى التغلبي ومقدّم الجيوش معين الدّين حسن بن الشّيخ بن حمويه، وخطيب عقربا السديد سالم بن عبد الرّزاق، وشعبان بن إبراهيم الدّاراني والأمير سيف الدّين علي بن قليج، ودفن بالقليجية، وأبو بكر عبد اللّه بن عمر بن النخال، وخطيب الصالحية الشرف عبد اللّه بن أبي عمر، ومفيد بغداد أبو منصور بن الوليد كهلا، وحافظ بغداد محب الدّين أبو عبد اللّه بن النّجار والمفتي أبو سليمان عبد الرّحمن بن الحافظ ومحدّث الجزيرة السّراج عبد الرّحمن بن شحانة. ومحدّث الإسكندرية أسعد الدّين عبد الرّحمن بن مقرب الكندي، والعلامة الوجيه عبد الرّحمن بن محمّد القوصي الحنفي المفتي عن ثمان وثمانين سنة والأديب العلامة أمين الدّين عبد المحسن بن حمود التنوخي، والعدل عتيق بن أبي الفضل السلماني وله تسعون سنة والإمام تقي الدّين أبو عمر وبن الصلاح، المعمر أبو الحسن بن المقير، وقاضي كفر بطنا علي بن محاسن بن عوانة النميري والعلامة علم الدين السخاوي...وابن خطيب عقربا يحيى بن عبد الرزاق والشّهاب يعقوب بن محمّد بن المجاور الوزير ويوسف بن يونس المقرئ البغدادي سبط ابن مداح وخلق سواهم"[19].

فابن يعيش يرى خدمة اللّغة العربيّة من خدمة الدّين الحنيف، فسعى في علومها قراءة وتعلّما، وكان شديد الحرص على الاجتهاد فيها، فأخلص جهده في التعلّم والاجتهاد، ثمّ التدريس والاستيعاب، ولم تخل حافظته من علوم القرآن الكريم: "وكان عارفا بالقراءات التي يحتج بها النّحاة"[20] ودليل ذلك تراه في كتابه'شرح المفصّل' و'شرح الملوكي في الصرف': "ينتقل من آية إلى أخرى، يذكر القراءات محلّلا منافحا حديث العارف المتمكّن"[21].

أما الحديث النّبوي؛ فكان له نصيب في حفظه وذكره والاستشهاد به، فقد كان: "يحتج بالأحاديث النّبويّة، وقد يخرّجها، ويتبيّن لنا من استعراض أسماء تلاميذه –أو من عرفنا منهم-أنّه كان مقصودا لسماع الحديث واستمر طوال حياته المديدة يُحَدِّثُ ويُحَدِّثُ عنه"[22].

فهو على خطى سلفه من العلماء؛ فغالبهم ينطلقون في أعمالهم من دافع الإيمان ويلزمون حدود الشرع لمحرّك الوازع الدّيني لديهم، فأفنوا أعمارهم في خدمة لغة الضّاد حرصا على صونها ونشرها وبسطها.

ورغم أنّ المؤرّخين وأهل التّرجمة لم يثبتوا منهجه وفكره العقائدي؛ إلّا أنّ أخذه عن علماء أهل السّنة والجماعة وملازمته مجالسهم، وعدم خوضه في مسائل الخلاف والتأويل؛ يلمّح إلى صفاء عقيدته وبيان منهجه، وهو طريق السّلف في فهم الكتاب والسّنة، ونظرا أنّ غالب مجريات حياته كانت بحلب وسيادة "المذهب الشّافعي"[23]، و"العقيدة الأشعريّة"[24]؛ فهذا يلمّح إلى صورته العقائديّة، وهذا ما يثبته بعض الباحثين، يقول عبد الإله نبهان واصفا عقيدة ابن يعيش وفكره: "أمّا عقيدته ومذهبه فلم يهتم أحد من مترجميه بذكر شيء عنهما،إذ انحصرت شهرته بالنّحو والأدب وقد ذكر اسمه عدّة مرات في "طبقات الشّافعيّة الكبرى"[25]، ولكنّه كان ذكرا عارضا وفي مجال أنّ فلانا قرأ عليه، وربما كان مذهبه الفقهي هو المذهب السّائد آنذاك وهو الشّافعي، ومذهبه العقائدي هو الأشعري؛ لأنّ أغلب أهل بلده كانوا كذلك"[26]. وهكذا هي أصول ابن يعيش الدّينيّة ومبادئه الإسلاميّة؛ التي مثّلت طريقه في العلم.

ب-قراءته كتب اللّغة، وتأثّره بسلفه من النّحاة:

ابن يعيش مرجعيّ الفكر منطلقه أعمال النّحويين الأوائل؛ قد كان منكبا على قراءتها والاطلاع على مكنوناتها، والتزام آرائها، ودليل هذا أنّ كتبه كانت دراسات وصفيّة تحليليّة تعمد إلى موازنةٍ بين آراء النّحاة، ومقاربة أحكامهم فيما يتعلّق بقواعد النّحو؛ نحو ما يوجد في مصنّفه شرح المفصّل للزّمخشري، وشرحه للتصريف الملوكي لابن جنّي، ولربّما رأى فيما سمع وقرأ أهميّة هاذين المصنّفين في علوم النّحو والصرف؛ فاختار للنّحو كتاب الزمخشري، وللصرف كتاب ابن الجنّي-رحمهما اللّه- وإن جرت العادة أنّ جلّ علماء اللّغة يتأصلون لأعمالهم بالاطلاع على أعمال سلفهم، ومجالسة علماء زمانهم فقد كان ابن يعيش على هذا المنوال، فسافر متنقلا بحثا عن العلماء؛ رغبة في حلقاتهم وما يبثّ فيها من أخبار المعارف واستطلاع آرائهم، فقد أخذ العلم عن: "أبي السّخاء فتيان الحلبي الحائك النّحوي (560ه)، وأبي الفضل عبد اللّه بن أحمد بن محمّد بن عبد القاهر الطّوسي الخطيب (578ه)، وأبي محمّد عبد اللّه بن عمر بن سويدة التكريتي(583ه)، وأبي الفرج يحيى بن محمود الثقفيّ (584ه)، وأبي سعيد بن أبي عصرون (585ه) وأبي البقاء موفق الدّين القرشي المخزومي (588ه)، وأبي الحرم مكي بن زيان بن شبّة بن صالح الماكسيني (603ه)، وأبي اليمن الكندي زيد بن الحسن تاج الدّين (613ه)"[27].

إذاً، فقد كان ابن يعيش ملازما مشايخ العربيّة فيما ذهبوا إليه في دراسة النّحو، وقد ولع بحبّ البصريين والانتصار لآرائهم في تفسير النّحو العربي لداعي القناعة بما يوحي به مذهبهم اللّغوي. وثقافته النّحويّة المأثورة هي: "تحصيل حاصل-لما أسلفناه ذكرا- لأنّ شرحه أكبر مثل شاخص عليها...وقارئ الشّرح يلمح ذهنا وقّادا، واستحضارا عجيبا، ويستشعر وضوحا أخّاذا وقد نثر في شرحه كتب الفارسي التي خبرها درسا وتدريسا وجلا غموضها لطلابه كما نثر كتب ابن جني كسر الصّناعة والخصائص، وكان كتاب سيبويه ماثلا في ذهنه في كلّ خطوة من شرحه، كلّ هذه دلائل على عمق ثقافته النّحويّة. وهكذا جاءت

صورة مذهبه اللّغويّ بصورة خاصّة ومرجعه المعرفيّ بصورة عامّة؛ الذّي مثّل وجهته العلميّة المحدّدة والمترجمة في 'عمليه الشّهرين البارزين'[28].

جـ-اعتماده المنطق والعقل في شرح الآراء وتفسيرها، واستنباط الأحكام:

ابن يعيش ذو نباهة وفطنة وباحث يقظ فيما يأخذ وعمّن يأخذ؛ فلم يكن لنيله العلم وفهمه سهولة؛ لولا رجاحة عقله وقوّة فكره، بل إنّه كان يحكّم منطق العقل في الشّرح والاستخلاص والاستقراء، ومع شيوع علوم الفلسفة والمنطق في وقته وأثرهما الواضح على مناهج علماء زمنه، فقد كان له قدرٌ هامٌ في توظيف أدوات العقل من فلسفة وحكمة في تسهيل الصعاب وفكّ الغموض، وشرح الغريب، وإقناع المرتاب.

هذا ولم تقتصر فائدة هذه العلوم عليه في مجال اللّغة فحسب؛ بل إنّها كانت تعزو بها أفكاره في فهم دينه وردّ الشّبهات. إذًا، فالرّجل كان ذا ثقافة منطقيّة: "تألّقت في شرحه وصبغتهُ بصبغتها"[29]، وعلى الرّغم من أنّ تراجمه لم تذكر أنّه قرأ علوم المنطق من أيّ ناحيّة؛ إلّا أنّ منهجه في أعماله، وطريقة مناقشته واستنباطه ومقارنته تفضي؛إلى مقاربة الرّجل مسالك المنطق، وربّما يكون قرأه بنفسه من غير معلّم أو "على الشيوخ ممّن لم يذكروا في تراجمه ولكنّه كان على كلّ حال ممتلئا به، حافظا له متطّبعا بطرائقه، يحفظ عبارات 'الشّفاء' لأبي علي ابن سينا كما هي ويستخدمها في حدوده. وقد يكون حفظ العبارات من أبرز الأدلّة وأشدّها سطحيّة، ولكنّ الأشدّ دلالة منها هو بنية تفكير الشّارح في حرصه الدّائم على مبدأ الهويّة وعدم التناقض والاطراد والتعليل"[30].

والملحوظ على أسلوبه في استعمال المنطق ملازمته الطّابع الذي رسمه علماء المسلمين في فهم المنطق وضبط استعماله؛ حتى لا يخرج إلى المخالفة والوقوع في المحظور سواء في قراءة معارف الدّين أو دراسة النّحو واللّغة: صحيح أنّ أسلوب–ابن يعيش كان يخفّف من الجفاف الذي كان تتسم به الأساليب المنطقيّة؛ ولكنّه لا يلغي ولا يخفي البنية الذهنيّة المنطقيّة الصارمة التي كان عمادها تراث النّحاة–والنّحو منطق العرب-وعلم المنطق كما دونه الشّارحون المسلمون"[31].

هكذا كان بناء الفكر وصرحه عند ابن يعيش –رحمه اللّه- فهو عالمٌ جليل؛ أقدم إلى علوم الدّين والعربيّة، وأسّس لنفسه طريقة شرح؛ سعى من ورائها لبسط رؤاه، وتبيان خطاه، ومطالعة آراء السّلف، وإعراب خبايا معارفهم من خلال أجود كتبهم وهو ما اختاره في كتاب 'المفصّل للزمخشري'، وكتاب 'التصريف الملوكي لابن الجّنّي'–رحمهما اللّه تعالى-. فترك لنا معْلَمَيْن هامّين عُدّا مرجعين أساسين في علمي الصرف والنّحو؛ لا غنى عنهما للمبتدئ، أو المتقدّم، وبهما تعرف كفاءة المصنّف رحمه اللّه، ومدى تعلّقه بأساتذة النّحو، ورغبته الشّديدة في إحياء علومهم وبسطها ونشرها منقّحة ومصحّحة في حلّة علميّة جديدة، وكان منهجه في مدارسة "مذاهب السّابقين دراسة واعية، فأمضى ردحا غير قصير من الزّمن يقلّب النّظر فيما انتهى إليه أمر النّحو...حتى تمكّن من معرفة الأسس التي بنوا عليها قواعدهم وأصولهم"[32]. والكلام في ابن يعيش لا تستوفيه أوراق محدّدة، بل هو علّامة ذو مقام جليل؛ أفضى للعربيّة قدرا هاما خدمة زادت التّراث اللّسانيّ العربيّ وضوحا وكمالا،

وبات شرحه المفصّل لا يغفل عنه عالمٌ ولا متعلّم في كلّ المراحل بما فيها الفترة المعاصرة.

(4)-خلاصة:

ابن يعيش -رحمه اللّه- عالم أثرى اللّغة العربيّة بأعماله الجيّدة رغم أنّها كانت من قلّة؛ فهي زادت التّراث النّحوي والصرفيّ نفاسة ووضوحا، ونقلت إلينا صورا جليّة في قراءة أفكار وآراء علماء اللّغة الأوائل على غرار 'الزّمخشري' وابن الجنّيّ' -رحمهما اللّه تعالى- وهكذا كانت حياته ونشأته، كما ذكرنا فقد تميّزت بالبساطة والرّاحة والازدهار، واتساع رحلاته العلميّة ومجالسة كبار علماء زمنه من أهل اللّغة والحديث والتّفسير والقراءات فألف شروحا في النّحو والصرف وفيها اتضح منهجه العلميّ؛ الذي عبّر عن وازعه الدّيني، ومنطلقه الفكري وطرق بحثه وانجازه، وهكذا هو ابن يعيش عالم مميز قارئ شغوف وعالم ومؤلّف وموسوعة نحويّة أصّلت لقواعد اللّغة، وتعتبر أعماله؛ مرجعا نحويّا لا غنى عنه.

(5)-الإحالات والتّهميش:

1-الزمخشري (467 - 538هـ، 1074 - 1143م) أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار اللّه. كان إمامًا في التفسير والنحو واللّغة والأدب، واسع العلم، كبير الفضل متفننًا في علوم شتى. ولد بزمخشر من ضواحي خوارزم وتوفي بجرجانيّة خوارزم ليلة عرفة. وكان معتزلي المذهب. أخذ الأدب عن أبي مُضر محمود بن جرير الضَّبِّي الأصبهاني، وأبي الحسن علي ابن المظفر النّيسابوري، وسمع من شيخ الإسلام أبي منصور نصر الحارثي، ومن أبي سعد الشَّقَّاني. سافر إلى مكّة وجاور بها زمانًا فصار يقال له: جار اللّه لذلك...ألّف الزمخشري تصانيف عديدة في صنوف المعرفة المختلفة ففي تفسير القرآن الكريم ألف كتابه الكشاف الذي وصف بأنه لم يصنَّف قبله مثله. وفي تفسير الحديث صنّف كتاب الفائق، وله في اللّغة كتاب أساس البلاغة أما في النحو فقد صنف كتبًا كثيرة منها: المفصّل...والأنموذج، والمفرد والمؤلّف وشرح أبيات كتاب سيبويه وله في الأمثال: المستقصي في أمثال العرب. كما أن له كتبًا في علم الفرائض والأصول، والفقه والأمالي في كل فن، وله شعر جميل. ينظر، موقع الموسوعة العربيّة العالميّة: http://www.mawsoah.net. وينظر، فاضل صالح السّامرائي الدّراسات النحويّة واللّغوية عند الزّمخشري دار النّذير للطّباعة والنّشر، (د-ط)، بغداد، (1389ه-1970م) ص15/14/13/12/11/10.

2- التصريف الملوكي؛ كتاب اختصر فيه ابن جني أهم المسائل في التصريف بمفهومه الواسع؛ أي بمعنى التغيرات التي تطرأ على الألفاظ العربية...وهذا الكتاب استخرجها بن جني من كتابه سرّ صناعة الإعراب، موجز لتعريف للكتاب: 31-08-2005م، ينظر الموقع الآتي: http://www.alfaseeh.net.

3-ابن يعيش، شرح المفصّل للزّمخشري، قدّم له ووضع هوامشه وفهارسه إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلميّة، بيروت لبنان الطّبعة الأولى (1422ه-2001م)، الجزء الأوّل، ص24/23.

4-الإمام شمس الدّين محمّد بن أحمد بن عثمان الذهبي، سير أعلام النّبلاء، الجزء: 23، ص147/146/145/144.

5-علي بن يوسف، القفطي، إنباه الرّواة على أنباء النّحاة، ج4، ص46/45.

6- كثير المجون: "وربما لا يكون وصفًا بنِ خلكان لابنَ يعيش بالمجون نابعًا من كون ابن خلكان قاضيًا متزمتًا؛ فهذه الكلمة كانت تستخدم للتعبير عن الفكاهة والمزاح وحسب، وليس تعبيرًا عن الخلاعة كما هو استعمالنا الحالي للكلمة" ينظر، محمّد محمود يوسف، 'موّفق الدّين بن يعيش .. نجم في سماء العربية'، مقال نشر على مجلّة الألوكة الأدبيّة اللّغوية الإلكترونيّة 2014/01/22م: http://www.alukah.net.

7- أحمد بن محمّد بن أبي بكر بن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزّمان، المحقّق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت 1972م، الجزء السابع، ص48/47.

8- عبد الرّحمن بن أبي بكر السّيوطي جلال الدّين، بغية الوعاة في طبقات اللّغويين والنّحاة المحقق، محمّد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاؤه، الجزء الثاني، الطبعة الأولى، (1384ه-1965م)، ص352/351.

9- ابن يعيش، شرح المفصّل للزّمخشري، ج1، ص24.

10- المقصود كتبه الآتية: 'أجوبة على أسئلة نحويّة لأبي نصر الدّمشقي'. و'تفسير المنتهى من إعراب القرآن'. و'كتابه في القراءات'، وهذه الكتب ذكرها محقّق كتاب شرح المفصّل 'إميل بديع يعقوب'.

11- عبد اللّطيف محمّد الخطيب، ابن يعيش والمفصّل، منشورات جامعة الكويت، الكويت، ط1، 1999م، ص44/43.

12- كارل بروكلمان بالألمانية: (Carl Brockelmann) ولد: (17 سبتمبر 1868 م) توفي: (6 مايو 1956 م) أكبر باحث عرفته الجامعات الاوروبية في النصف الأول من القرن العشرين في مجالات الدراسات السامية وتاريخ التراث العربي. ولد: بروكلمان في مدينة رو ستوك. حصل على الدكتوراه من جامعة سترا سبورگ عام (1890 م) عمل أستاذاً في جامعات برسلاو وبرلين .نشر كتاب تاريخ الأدب العربي (1902-1898م) ثمّ (نحو السريانية وآدابها) (1899م)، المعجم السّرياني (1928م)، النّحو العربي (تحت اسمه عام 1941م)، إلا أنها كانت النسخة الحادية عشر من نحو (ألبرت سوسين ,Albert Socin) والذي سبق لبروكلمان تعديله عدة مرات. كارل بروكلمان تتلمذ على أيدي فيشر ونولدكه. ويعتبر أهم المستشرقين الألمان بسبب عمله العظيم (تاريخ الأدب العربي)، وهو تاريخ للكتابة العربية عبر العصور، وفي شتى الفنون، ومن القرن الثالث وحتى الثالث عشر هجري. قسّم بروكلمان الكتابة العربية إلى حقب وعصور، وتأتي تحت كل عصر الدول والنواحي والبلدان والفنون التأليفية المختلفة، ثم تليها تراجم المؤلفين في كل فن وعناوين ما ألفوه، وذكر لأماكن المخطوطات الباقية من تلك المؤلفات. وقد أفاد بروكلمان من الأدبيات التي كان الألمان نشروها مثل (الفهرست لابن النديم) و (كشف الظنون) لحاجي خليفة. ينظر الموقع الإلكتروني الآتي: http://www.marefa.org/index.php.

13- عبد اللّطيف محمّد الخطيب، ابن يعيش والمفصّل، ص44.

14- عبد الإله نبهان، ابن يعيش النّحوي، منشورات اتحاد كتاب العرب، (د-ط، د-م)، 1997م، ص61.

15- عبد الإله نبهان، ابن يعيش النّحوي، ص61.

16- المرجع نفسه، ص61.

17- ينظر، محمّد محمود يوسف، 'موّفق الدّين بن يعيش...نجم في سماء العربية'، مقال نشر على مجلّة الألوكة الأدبيّة اللّغوية الإلكترونيّة 2014/01/22م: http://www.alukah.net.

18- ينظر، الإمام شمس الدّين محمّد بن أحمد بن عثمان الذّهبي، سير أعلام النّبلاء، ج23، ص145.

19- المرجع نفسه، ص147/146.

20- عبد الإله نبهان، ابن يعيش النّحوي، ص58.

21- المرجع نفسه، ص58.

22- المرجع نفسه، 58.

23- المذهب الشّافعيّ: الشّافعية أو المذهب الشّافعي أو الفقه الشّافعي اشتهر هذا المصطلح منذ البدايات المبكرة لنشوء المدارس الفقهية السنية المختلفة، لكنه بالتأكيد ظهر في حياة الإمام محمد بن إدريس الشافعي

(150-204 هـــ) الذي ينسب إليه المذهب الشافعي. ويعتمد المذهب الشافعي في استنباطاته وطرائق استدلاله على الأصول التي وضعها الإمام الشّافعي بشكل عام، لكن ليس بالضرورة أن تتوافق آراء المذهب الشافعي مع آراء الإمام الشـافعي نفســه، بل قد يكون المذهب اســتقر على ورجّح خلاف ما رجحه الشـافعي، لكن الأصــول وطرائق الاســتدلال واحدة. ومما يُذكر أن الإمام الشـــافعي يُعد أول من دوّن كتاباً متكاملاً في العلم المعروف بأصول الفقه، وذلك في كتابه الشهير الرسالة، كما دوّن كتباً أخرى منها: (الحجة) وهو الكتاب الفقهي الذي دوّنه أولاً في العراق ثم أعاد تأليفه وغير مذهبه في بضع عشرة مسألة فقهية فيه عندما سكن القاهرة وسمى الكتاب (الأم)، ينظر الموقع الإلكتروني: https://ar.wikipedia.org/wiki.

24- الأشعرية: نسبة إلى إمامها ومؤسسها أبي الحسن الأشعري، الذي ينتهي نسبه إلى الصحابي أبي موسى الأشعري هي مدرسة إسلامية سنية اتبع منهاجها في العقيدة عدد كبير من فقهاء أهل السنة والحديث، فدعمت اتجاههم العقدي. ومن كبار هؤلاء الأئمة: ابن حبان الدارقطني، الحاكم، البيهقي، الباقلاني، القشيري، الجويني، الغزالي، الفخر الرازي (صـاحب التفسـير الكبير)، البيضـاوي (صـاحب تفسـير أنوار التنزيل)، التفتازاني (شـارح العقائد النسـفية)، السـيوطي (صـاحب الإتقان في علوم القرآن)، النووي (شارح صحيح مسلم وصاحب رياض الصالحين)، ابن حجر العسقلاني (شارح صحيح البخاري في كتابه فتح الباري)، القسطلاني (صاحب إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري) ابن عساكر (صاحب تاريخ دمشق الكبير) ابن عقيل الحنبلي، وتلميذه ابن الجوزي، والعز بن عبد السـلام، والتقي السـبكي، وغيرهم كثير من العلماء الأعلام، حتى إنهم مثّلوا جمهور الفقهاء والمحدثين من شافعية ومالكية وأحناف وبعض الحنابلة ينظر الموقع الإلكتروني: https://ar.wikipedia.org/wiki.

25-طبقات الشّافعيّة الكبرى: هو كتاب لتاج الدّين عبد الوهاب بن علي السبكي، (ت 771هـ / 1370م) كتاب يبحث في علم التراجم في مجال خاص إذ يترجم لجماعة واحدة وهم الفقهاء الشـّافعيون حســب طبقاتهم الطبقة الأولى، فالثانية، وهكذا يذكر اسم الفقيه ونسبه، وروايته ودرجته بين أهل العلم، وشيئا من مآثره. ينظر الموقع الإلكتروني الآتي: https://ar.wikipedia.org/wiki.

26- عبد الإله نبهان، ابن يعيش النّحوي، ص44.

27- ينظر، المرجع نفسه، ص44/45/46/47/48.

28-المقصود: كتاب شرح المفصلّ للزّمخشري، وشرح التصريف الملوكي لابن جنّي.

29- عبد الإله نبهان، ابن يعيش النّحوي، ص60.

30- المرجع نفسه، ص60.

31- المرجع نفسه، ص60.

32- عبد اللّطيف محمّد الخطيب، ابن يعيش والمفصّل، ص5.